تحولات تربوية
ⵜⵓⵏⴼⵉⵍⵉⵏ ⵜⵓⵙⵍⵎⴰⴷⵉⵏ
TRANSFORMATIONS ÉDUCATIVES

أرضية ملف العدد 2

المدرسة والثقافة

مجلة مُحكمة
تصدر مرتين في السنة عن المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي
جميع الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهات نظر أصحابها، ولا تعكس بالضرورة رأي المجلس

تقديم

يقتضي التفكير في علاقة المدرسة بالثقافة في سياقنا المغربي أن نستحضر جملة من المحدّدات، النظرية منها والمنهجية. فعلى المستوى النظري، لا يطرح تعريف المدرسة الإشكالات نفسها التي يطرحها تحديد مفهوم الثقافة، رغم أنّ رهاناتهما تتمفصل فيما بينها. وإذا كان واضحاً بشكل عام أن المدرسة مؤسّسة أساسية في بناء المجتمع، تتنوع غاياتها ومهامّها وتنظيماتها بتنوع التجارب التاريخية والحضارية واقتصاديات المجتمعات، فإن التوقف على مفهوم الثقافة يستلزم بالضرورة موقفاً تركيبيا، لتعدّد أبعاده وتداخلها مع مفهوم الحضارة والتاريخ والمجتمع والمدرسة ذاتها.

وإذ نستحضر هذه الخلفية، فإننا نعتمد تعريفاً تركيبيا وإجرائيا للثقافة دون استغراق في تفاصيلها وأبعادها، فنُعرِّف الثقافة بأنها نظام عامّ لتصورات وتمثّلات وقيم وسلوكات تحكم علاقات الجماعات والأفراد بالذات وبالآخر، وبالعالم، ماضياً، وحاضراً، ومستقبلاً. إنها جدلية عامّة للفكر والإحساس والخيال والفعل، تتجسّد في الممارسات الفردية والجماعية، سواء كانت محافظة على الرصيد أو مجدِّدة أو مُفكِّكة له من باب الإبداع الذي يبقى في العمق محكوماً بجدليات الاستمرارية والقطيعة، الترصيدِ والتجديد، فالتكرارِ والاختلاف. إنّ كلَّ تفكير في علاقة الثقافة بالمدرسة يتبيّن بالضرورة العلاقة الوثيقة بينهما، ذلك أنّ كلّ نظام تربوي يتأسّس، بشكل مباشر أو غير مباشر، على مرجعية ثقافية، كما أنّ كلّ ثقافة تفترض بالضرورة نظاماً تربوياً يضمن لها النقل بين الأجيال للقيم والتصورات والتمثّلات والسلوكات، ممّا يؤكد تلازمهما الذي يجعل المجتمع يؤثّر، عبر مُرَكَّبَهِ الثقافي العام، في المدرسة، ويجعل هذه الأخيرة تؤثّر بدورها في مجتمعها عبر ما تعيد إنتاجه تربوياً وقيمياً.

إنَّ العلاقة بين الثقافة والمدرسة محكومةٌ بالسياق الاجتماعي والتاريخي الذي يحدّدها في مضمونها وشكلها، وبالتالي في أبعادها. من هذا المنظور، يتأكّد أنّ التفكير في العلاقة بين الثقافة والمدرسة يمكنه أن يعتمد مداخل متعدّدة. كُلُّها مداخل وجيهة ومشروعة، وإن كان يصعب تغطيتها جميعها. لهذا آثرنا أن نقترح فقط بعض المداخل ذات الدلالة في السياق المغربي، ذلك أنّ كلّ تفكير في علاقة الثقافة بالمدرسة في سياقنا سيواجه هذه الإشكالات بشكل مباشر.

إذا كانت المدرسة المغربية قد اختارت، من خلال الرؤية الاستراتيجية، أن ترفع تحدّي الإنصاف والجودة والارتقاء بالفرد والمجتمع، فإنّ التفكير في علاقة الثقافة بالمدرسة مطالب باستحضار العلاقة بينهما من منظور الحقّ والإنصاف في الولوج إلى الثقافة وفي التثقف، والجودة (جودة التكوين والتمكين والتأهيل الثقافي)، والارتقاء بالفرد والمجتمع (من خلال عدم اختزاله في بعد واحد من أبعاده على حساب أبعاد أخرى).

لقد واجه المفكرون المغاربة (علال الفاسي؛ عبد الله العروي؛ محمد عابد الجابري؛ محمد عزيز الحبابي وآخرون)، كل من منظوره الفكري والإيديولوجي، سؤال علاقة الثقافة بالمدرسة، عبر مطالب التقدم والتحديث أو عبر مطالب ترسيخ الهوية الحضارية والدينية للأمة. ذلك أن تصور طبيعة العلاقة بين الثقافة والمدرسة لا يمكن أن ينفصل عن طبيعة الجواب عن السؤال المؤرق: أي نموذج ثقافي وعلى أساس أي اختيارات ثقافية نبني المدرسة التي نريد.

لقد كانت المدرسة العمومية في السابق، ضامنة لإنتاج الرابطة الوطنية تربوياً ولإعادة إنتاجها الموسّعة على أساس الترابط العضوي بين المدرسة والدولة–الأمة. أما في السياق الحالي، وفي ظلّ توسع التوجهات العولمية، فيبدو أن

المدرسة لم تعد قادرة على إنتاج هذه الرابطة نفسها بالقوة التي كانت لها في الماضي، بل تراجعت أدوارها، إذ تقلّص مجال تأثيرها بفعل التحولات التي فرضتها هذه التوجهات في اتجاه تنميط وتوحيد أسلوب التفكير وتفكيك الهويات والكيانات الوطنية وإعادة تركيبها. فكيف يمكن للمدرسة أن تسهم في بناء هوية تركيبية تمتح من قيمها الأصيلة وتتملّك، في الآن نفسه، قيم التجديد والإبداع، بعيداً عن استيراد جاهز واستهلاكي غير نقدي للنماذج القيمية؟ وكيف يمكن للمدرسة أيضاً أن تنشر وتهيئ لثقافة تركب بين الأبعاد الهوياتية والأفق الكوني.. كما ينبغي ألاّ ننسى أنّ المدرسة لم تعد المرجع الوحيد، وبالتالي لم يعد للثقافة المدرسية المكانة ذاتها، ولا الوزن الذي كان لها في السابق، إذ أصبحت الثقافة المدرسية مطالبة بالتنافس المتسارع مع ثقافة وسائط التواصل الاجتماعي وباقي المصادر التي تخترق الحدود ولا تخضع للتتبّع والتأطير والمواكبة. هكذا، لم تعد المدرسة المؤّسسة الوحيدة التي توزّع المعارف وتُكسب المهارات وتدرّب على الكفايات، بل ظهرت وسائل وآليات أفقية توفّر معلومات أكثر، وتعطي المتعلمين حرّية أكبر، بحكم أنّ مساحات الاختيار تتّسع أكثر بكثير من مساحات المضامين المنهاجية رغم غناها.

تلامذة اليوم، هم أطفال العصر الرقمي: فقد تعاملوا مع الوسائل التكنولوجية مبكّراً، لدرجة يسهل الحديث فيها عن هُويتهم الرقمية وأحيانا إدمانهم الرقمي؛ فقد وسّعت الثورة الرقمية التي ما زالت أمواجها تتالى، الهوّةَ بين الثقافة المدرسية بمفهومها الكلاسيكي، من جهة، وثقافة تلامذة اليوم، أي تلامذة العصر الرقمي من جهة أخرى، وهو ما يطرح سؤال المنهاج الملائم للتقليص المدرسي من اتّساع هذه الهوة. فأيّ منهاج يقدر على تمكين التلامذة من المهارات والكفايات اللازمة للانخراط الإيجابي في زمن العولمة والتكنولوجيا المتطورة؟ وما هي معالم الخلفية الثقافية (الوطنية والكونية المتعدّدة والمركبّة) الداعمة للاختيارات المنهاجية المطلوبة؟ وذلك في سياق ضعفت فيه صيغ النقل المؤسّساتي التراتبي للمعارف والمهارات والكفايات، لصالح النقل والتبادل الأفقيين والموازيين لشبكات التواصل الاجتماعي وباقي الوسائط، إذ تتاح فرص المشاركة بشكل أوسع، وتسود قيم الأقران وفئة السن على حساب القيم الـمُمَعيرة المؤَسِّسة للمدرسة؟

ويقود التساؤل عن العلاقة بين المدرسة والثقافة كذلك إلى طرح مكانة الفنون في المنهاج من خلال موادّ التربية الفنية (الموسيقية والتشكيلية)، وكذا مكانة المسرح المدرسي والسينما وغيرها من الفنون.

هل يمكن الدفاع بكل اطمئنان عن منهاج تربوي لا تُعطَى فيه للتربية الفنّية باعتبارها رافدًا ثقافياً أساسياً المكانة التي تليق بها؟ ألا يشّكل ضُعْف هذا المكون في المنهاج التربوي للسلك الابتدائي وشبه غيابه في السلك الإعدادي خللاً في التكوين الثقافي ببعديه الروحي والقيمي للتلامذة، وبالتالي عوض أن تسهم المدرسة في تقليص الفوارق الثقافية والمجالية بين التلامذة، يُترك أمرها لمصادفات التوزيع اللاّمتكافئ للرساميل الثقافية للأسر، حيث لا يتساوى التلامذة فيما بينهم.

في الأفق نفسه، يستلزم التفكير في علاقة المدرسة بالثقافة استحضار حجم وكيفية حضور المكون اللغوي والأدبي في المنهاج الدراسي، وذلك من وجهة نظرٍ تعتبر أنّ المضامين الدراسية اللغوية والأدبية، وإن كانت ذات بعد مدرسي محكوم بالتدرّج المنهاجي وبمقتضيات العملية التعليمية–التعلّمية، فإنّها، تبقى في نواتها العميقة مرتبطة بالتراث الأدبي الوطني والإنساني الذي يعكس الوضع البشري عبر الصور الشعرية والسرود الروائية والحكائية.

وبذلك ترتبط هذه الأجناس الأدبية في دلالتها الوجودية والحضارية والإنسانية بالعمق الثقافي الذي تعتبر المدرسة أحد منابعه ومصادره، إن لم تكن أهمّها. تطرَح هذه الملاحظة رغم إيجازها الشديد سؤال علاقة المدرسة بالثقافة من منظور ما تستطيعه الآداب والفنون عامّة عبر نمط حضورها بدلالته الوجودية والأنثربولوجية العميقة في البرامج والمقررات، وفي الممارسات التربوية والحياة المدرسية.

انطلاقاً من هذا التصور العام، نقترح على الباحثين تقديم مقترحات أوراقهم العلمية ضمن المحاور الآتية.

المحاور المقترحة لملف العدد:

1. الرهانات النظرية لإشكالية علاقة الثقافة والمدرسة من منظور المنجز الفكري للمفكرين المغاربة: في هذا المحور يتمّ التوقف على الكيفية التي تمّت بها معالجة هذه الإشكالية في الفكر المغربي من خلال استحضار بعض النماذج الفكرية من باب الترصيد والاستشراف الفكريين.

2. إشكالية العلاقة بين المدرسة والثقافة في الرؤية الاستراتيجية والقانون الإطار ووثيقة النموذج التنموي: يُطلب هنا، من المساهمين، العرض التحليلي والتركيبي في الآن نفسه لوزن هذه الإشكالية في الوثائق المرجعية الأساس المذكورة أعلاه بأفق استشرافي.

3. جدلية التقليدانية والحداثة في المدرسة المغربية: يراعى في تناول هذا المحور الذي يتقاطع مع المحورين الأول والثاني استحضار الطابع المركب لهذه الجدلية داخل المدرسة المغربية. فهي جدلية الاختيارات الكبرى الخاصة بالهوية الثقافية بين المرجعيات الأصيلة والحداثية، كما يمكن أيضا مقاربة إشكالية المحور من خلال تجارب دولية ملهمة.

4. إشكالية المدرسة والثقافة في المنهاج الدراسي الحالي ومسارات التكوين الجامعية: من خلال تحليل وضع ومكانة الآداب والعلوم والفلسفة واللغات والفنون والتقنيات في المنهاج الدراسي الحالي وفي مسارات التكوين الجامعية من حيث المجالات المضمونية في مختلف التخصصات ووفق المستويات المهارية والكفايات وما تفتحه من آفاق الارتقاء بالفرد والمجتمع من خلال المنظومة التربوية.

5. إمكانيات التمفصل بين الممارسات التربوية والممارسات الثقافية: ينتظر في هذا المحور، من المساهمين، التوقف على شروط إمكانية تمفصل ناجع وفعّال بين الممارسات التربوية والممارسات الثقافية، من خلال أدوار الفاعلين التربويين والمثقفين والفنانين في النهوض بالأنشطة الموازية والأنشطة الطلابية الجامعية.

6. الثقافة المدرسية المغربية في أفق حاجيات ومطالب كفايات القرن 21 ورهانات النموذج التربوي الجديد: كيف يمكن للمدرسة المغربية الجديدة أن تستجيب لمطالب الثقافة الجديدة التي تتشكل في التحول الرقمي؛ والعولمة؛ والتعدّد القيمي؛ ودينامية الهويات في أبعادها المحلية والجهوية والعالمية؛ و«الأنثربوسين» (Anthropocène) أو حقبة التأثير البشري على الطبيعة؛ والوعي الإيكولوجي الجديد؛ وتنامي مظاهر الهجرة؛ إلخ؟

وتظلّ هيئة التحرير منفتحة على استقبال أوراق بحثية تتعلّق بأسئلة أخرى ذات صلة بموضوع الملفّ يُقدِّر الباحثون أنها ذات أهمية.